﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: 122]

❁ مُنَاسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ضـربُ الأمـثـالِ بـعـد بـيـانِ الحقائقِ يَزِيدُهَا جَلَاءً

لَمّا بيَّن سبحانَه في الآيات السَّابقةِ حالَ أَكثرِ أَهلِ الأَرضِ، بأنَّهم مُنغمسونَ في الضّلالِ، مُتَّبعونَ للظَّنِّ، يُضلّونَ غيرَهم بأهوائِهم على غيرِ هُدًى وتثبّتٍ، وأنّ بعضًا منهم لَيجادلونَ المؤمنينَ بوحيٍ منَ الشَّياطينِ لإضلالِهم وحملِهم على اقترافِ الآثامِ؛ ضَربَ هنا مَثلًا في بيانِ الفَرقِ بينَ المهتدِينَ اقتداءً بهم، والكافرِينَ الضَّالّينَ؛ تنفيرًا وتحذيرًا منْ غَوايتِهِمْ، فإنّهم لَمْ يُمَيّزُوا بَينَ النُّورِ والظُّلماتِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَيْتًا﴾: اسمٌ مجردٌ يدلُّ على ما ليسَ فيهِ الرّوحُ، وجذرُهُ اللّغويُّ (موت)، ومعنى الموتِ ما كانَ ضدَّ الحياةِ، ولهذا الجذرِ أصلٌ في لسانِ العربِ يدلُّ على انقضاءِ القوّةِ منَ الشّيءِ أوِ الجسمِ، وهيَ القوّةُ النّاميةُ الموجودةُ في الإنسانِ والحيوانِ والنّباتِ[2]، والمَّيتُ في الآيةِ مجازٌ عنِ الحياةِ، أيْ: منْ كانَ ميتًا بالكفرِ والضّلالِ فأحييناهُ بالهدى والإيمانِ[3].

2) ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾: فعلٌ ماضٍ يدلُّ على جعلِ الرّوحِ في الإنسانِ، فكلُّ ذي رُوحٍ ينطبقُ عليهِ اللّفظُ، وجذرُهُ اللّغويُّ (حيو) و(حيي)، والأصلُ في معناهُ أنّهُ ضدُّ الموتِ في أحدِ معنيَيْهِ، وهو أيضًا "قوةٌ

(1) رضا، تفسير المنار: 8/25.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (موت).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (موت).

ساريةٌ تتمثّلُ في الحسِّ والنُّمُوِّ، وهو حركةٌ واتّصالٌ وامتدادٌ معَ الطراءةِ"، ويُطلقُ هذا اللفظُ على القوّةِ النّاميةِ المتوافرةِ في النّباتِ والحيوانِ؛ فيوصفُ كذلك النّباتُ بالحيِّ[1]، ومعنى ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾: هديناهُ هدايةَ التّوفيقِ، بأنَ قذفْنا نورًا يحيى بهِ القلبُ، فبعدَ أنْ كانَ ضالًّا هديناه[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الكافرُ يرى عملَه زينةً وزُخرفًا لا ظُلمًا وضلالًا

بيَّنتِ الآيةُ أنَّه لا يستوي منْ كانَ كافرًا مشركًا هالكًا محتارًا في ضلالتهِ، فأرشدَهُ اللّهُ، وأحيا قلبَهُ فغدا عامرًا بالإيمانِ، وصيّرَ لهُ نورًا يهتدي بهِ؛ مع منْ هوَ في ظلماتِ الكفرِ والجحودِ ليسَ بخارجٍ منها، وكما أنَّه قد زُيّنَ لهؤلاءِ سوءُ أعمالهمْ زُينَ للكافرين سوءُ أعمالهمْ وفسادُ اعتقادِهمْ.

والمثلُ المذكورُ في الآية عامٌّ لكلِّ مؤمن ولكلِّ كافر، وهو رأيُ جمهور المفسّرين، وليس المرادُ بمن أحياه اللّه وهداه شخصًا معيّنًا كعمرَ بنِ الخطّاب، وليس المرادُ بمن بقي في الظّلمات ليس بخارج منها شخصًا معيّنًا كعمرو بن هشام[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غرضُ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾:

نفيُ مُشابهةِ الكافرِ للمُؤْمِنَ، وإنكارُ أن يُظنَّ ذلك

ابتدأَ قولُه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بهمزةِ الاستفهامِ، وغرضُها الإنكارُ[4] والنَّفيُ، أي: أفمنْ كانَ ميتًا بالكفرِ والضّلالةِ فأحييناهُ بالإيمانِ وجعلنا لهُ نورًا يمشي بهِ، كمن هو في الظلماتِ يتخبّطُ فيها، فنفى أنْ يكونَ هذا مثلَ ذاكَ، وأنكرَ أن يُظنَّ أنَّ هذا مثلُ هذا.

(1) الخليل، العين: (حيو)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حيّ)، والراغب، المفردات: (حيي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حيي).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 21/277.
(3) طنطاوي، الوسيط: 5/167.
(4) رضا، تفسير المنار: 8/26.

تعيينُ المعطُوفِ عليه بالواوِ في قولِه تعالى: ﴿أَوَمَن﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ إمَّا للعطفِ، وهذا العطفُ إمَّا أن يكون على جملةٍ سابقةٍ مذكورةٍ قبل الهمزة كما هو مذهبُ سِيبَويه، وإمَّا أن يكونَ على جملةٍ مقدَّرةٍ بعد الهمزة كما هو المشهورُ من مذهبِ الزَّمخشريّ.

الواو إمَّا للعطفِ على مذكورٍ سابقٍ للهمزةِ، وإمَّا على مقدَّرٍ بعدها

فعلى المذهب الأول فالجملةُ معطوفةٌ على قولِه: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾؛ فإنّ هذهِ الجملةَ متضمِّنةٌ المجادلةَ في تقبيحِ أحكامِ الإسلامِ، فجاءَ بهذينِ التّمثيلينِ للحيّ والميتِ لتفظيعِ حالِ المشركينَ ووصْفِ حُسنِ حالِ المؤمنينَ حينما فارقوا الشّركَ[1].

وعلى المذهب الثَّاني فإنّ همزَةَ الاستفهامِ داخلةٌ على جُملةٍ مَحذوفةٍ للعلمِ بها منَ السِّياقِ وهو منْ لطائفِ الإيجازِ، وتقديرُ هذهِ الجملةِ: أَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ كَأُولَئِكَ الشَّيَاطِينِ أَوْ كَأَوْلِيَائِهِمُ الَّذِينَ يُجادِلونَكُمْ بِمَا أَوْحَوْهُ إِلَيْهِمْ مِنْ زُخْرُفِ القَوْلِ الَّذِي غَرُّوهُمْ بِهِ، وَمَنْ كانَ مَيْتًا بِالكُفْرِ وَالجَهْلِ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالإيمانِ وَجَعَلْنا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ - وهو نُورُ القُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنَ العِلْمِ الإِلَهِيِّ وَالهِدَايَةِ بِالآيَاتِ - إِلَى العِلْمِ النَّظَرِيِّ، كَمَنْ صِفَتُهُ وَنَعْتُهُ الَّذِي يُمَثِّلُ حَالَهُ هو أَنَّهُ خَابِطٌ فِي ظُلُمَاتِ الجَهْلِ وَالتَّقْلِيدِ الأَعْمَى وَفَسَادِ الفِطْرَةِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا[2].

براعةُ الاستعارةِ في استعمالِ لفظِ الموتِ والإحياءِ في قولِه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، فقد شبّهَ مَن كانَ ضالًّا فهداهُ اللّهُ بمن كانَ ميتًا فأحياهُ اللّهُ، أي: فهديناهُ، فقد استعارَ الإحياءَ من معناهُ الموضوعِ في لسانِ العربِ

استعارَ الإحياءَ للهدايةِ في دلالتِها على الطريقِ المُوصلِ إلى المَطْلُوبِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 43/أ8.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/26، وطنطاوي، الوسيط: 5/169.

وهو جعلُهُ حيًّا بعد موتٍ، لِلْهِدَايَةِ وهي الدّلالةُ على الطَّريقِ المُوصلِ إليه سبحانهُ[1]، وقد وصف الله في كتابه الكفّارَ بأنّهم أمواتٌ في العديد منَ الآيات كقوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴿٢١﴾﴾ [النحل: 21]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: 80]، وفي قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ﴾ [فاطر: 22]، فلما جعل الكفرَ موتًا والكافرَ ميتًا جعل الهدى حياةً والمهتديَ حيًّا؛ وإنّما جُعل الكفرُ موتًا لأنّه جهل، والجهلُ يوجبُ الحيرةَ والوقفةَ، فهو كالموت الذي يوجبُ السّكونَ، وأيضًا الميتُ لا يهتدي إلى شيءٍ، والجاهلُ كذلك، والهُدى علمٌ وبصرٌ، والعلمُ والبصرُ سببٌ لحصول الرُّشدِ والفوزِ بالنّجاة[2]، فالاستعارةُ في الآية تصريحيَّةٌ، وفي هذه الاستعارةِ تقبيحٌ لحال الضَّلال، وتبشيعٌ وتشنيعٌ على مقترفِيها، كما أنَّ فيه مدحًا للمؤمنين، ورفعًا لشأنِهم، والموتُ دليلُ فناءِ صاحبِه في الدُّنيا، بخلافِ الحياة فهي دليلُ بقاءِ صاحبها، والميتُ متوقِّفٌ، والحيُّ على طريقِ الوصولِ إلى الغايةِ العُظمى.

نكتةُ إسنادِ الإحياءِ إلى ضميرِ العظمةِ في قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾:

تشريفُ مَن أحياه الله وتكريمُه بعد ضَياعِه وضَلاله

لَمَّا كان الإحياءُ من صفات الإحسان إلى العبدِ المؤمنِ نسبَ ذلكَ إليهِ فأسندَ الإحياءَ إلى نفسه تعالى فقالَ: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾، وفي صفةِ الكافرِ لَمْ ينسبهَا إلى نفسِهِ[3]، وفي هذا الإسناد تشريفٌ وتكريمٌ لمن أحياه الله تعالى بعد موتِه وضَياعه؛ فإنَّ إحياءَ الله تعالى إحياءٌ حقيقيٌّ دائمٌ.

بلاغةُ الإطْنابِ في جملةِ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾:

يشتملُ قولُه تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ على نوعِ إطنابٍ،

(1) الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 3/310 - 311.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/132.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/635.

فقدْ عبّرَ عنِ الهدايةِ بأنْ جعلَ لصاحبِها نورًا يمشي به، ولمْ يقلْ: نَوَّرْناهُ؛ لأنَّ هذا التّعبيرَ يوحِي بأنَّ النورَ سيكونُ مختصًّا بهِ في النَّاسِ، "إشارةً إلى تنويرِهِ على نفسهِ وعلى غيرهِ منَ النَّاسِ فذكرَ أنَّ منفعةَ المؤمنِ ليستْ مقتصرةً على نفسهِ"[1]، وهو يريدُه على سبيلِ المشيِ بهِ بينَ النّاسِ ليميّز بينهمْ من كانَ مهتديًا ممّنْ كانَ في عَمًى، كما أنَّ فعلَ الجعْلِ المسنَدَ إلى ضمير العظَمة فيه تثبيتٌ وتوكيدٌ وتحقيقٌ، فهو ليس جعلًا اعتياديًّا، بل هو جعلٌ ثابتٌ راسخٌ.

نورُ المؤمنِ يميّزُ مـنْ كـانَ على هُدًى ممّنْ كانَ في عَمًى

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ على المفعول ﴿نُورًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾؛ لنُكتتين: الأولى: إرادَةُ الاختصاصِ والقَصْر، وهو قصرٌ ادّعَائيٌّ للمبالغةِ؛ فكأنَّه تعالى جعل النّورَ له وحده، والأخرى: التَّشويقُ؛ فإنَّ السَّامعَ ينتظرُ أن يعلمَ ما جعله اللّه تعالى لمن أحياه اللّه بهدايته.

اجتماعُ نُكتَتَيْن: القَصْرِ الادِّعَائِيِّ لـلـمـبـالـغـةِ والتَّشْوِيقِ إلى المَعْرِفَةِ

بلاغةُ الاستعارةِ في استعمالِ ﴿يَمْشِى﴾:

التّعبيرُ بالفِعْلِ ﴿يَمْشِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ﴾ من بابِ الاستعارةِ؛ فإنَّ غايةَ النّورِ الإضاءةُ لا المشيُ، لكنّهُ عبّرَ عنه بمن جعلَ له نورًا أنّهُ يمشي بهِ في الناسِ كيفَ سلكَ؛ تشبيهًا لهُ بالعصا التي يتوكَّأُ عليها في سيرهِ بينَ الناسِ، ويتأمّلُ بهِ في الأشياء، ويهتدي بهِ في الفلَواتِ فيميّزُ بينَ الحقّ والباطلِ[2].

نُورُ المؤمنِ دليلُه وهادِيه في حياتِه الدّنيا

معنى حرفِ الباءِ الدّاخلِ على الضّميرِ: ﴿بِهِۦ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ﴾ سببيّةٌ[3]، فالنّورُ الذي جعلهُ اللّهُ له كانَ سببًا في هدايتِه المعبَّر عنها بالمشي بين الناسِ مستضيئًا به.

نـورُ الـلـهِ سببُ هدايةِ الضّالّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/635.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/180.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ45.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي ٱلنَّاسِ﴾:

من استنارَ قلبُه وصلَ كلامُه إلى قلوب النّاس

استعمالُ حرفِ الظّرفيةِ في قولِه: ﴿فِي ٱلنَّاسِ﴾ لهُ دلالةُ التّمييزِ بينَ الناسِ بعضِهمْ منْ بعضٍ، فيفصلُ بينَ منِ اهتدى ومنْ بقيَ على ضلالتِه مُرتكسًا في الظّلماتِ غيرَ منفكٍّ عنها[1]، وأفاد هذا الحرفُ تأثيرَ صاحبه في النَّاس، فلو قال: (يمشي به بين النَّاس)؛ لفُهم أنَّه يمشي بينهم فحسب، وهذا معنًى ماديٌّ، لكنَّه لما أتى بحرفِ الظَّرفيَّة أفاد أنَّه يمشي بتأثيرٍ فيهم.

براعةُ التَّمثيلِ في قولِه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

الآيةُ مُترددّةٌ بينَ التّشبيهِ التّمثيليّ والاستعارةِ التّمثيليةِ

معنى قولِه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: كَمَنْ مثلهُ مثلُ ميتٍ ومعنى مثَلِه أي: حاله، وطريقةُ التّمثيلِ هنا كحالِ منْ أسلمَ واهتدى قُبالةَ منْ كانَ ميتًا فأحياهُ اللّهُ، وتمثيلُ منْ هو باقٍ على إشراكِه بحالِ ميتٍ باقٍ في قبرِه، والاستفهامُ الإنكاريُّ يَنفي المشابهةَ، ووجودُ كافِ التّشبيهِ معَ خُلوِّ التركيبَينِ منَ المشبّهِ أوردَ خلافًا في كونِ التّشبيهَيْنِ منْ قَبيلِ التّشبيهِ التّمثيليِّ، وهوَ رأيُ القُطبِ الرازي، أو منْ بابِ الاستعارةِ التّمثيليةِ، وهوَ رأيُ التّفتازانيِّ، وهذا الثّاني ما رجّحهُ ابنُ عاشورٍ[2].

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في قولِه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

المحذوفُ هنا المشبّهُ وهو مساوٍ للمشبّه بهِ في كونِهما مُشركَيْنِ

في قوله تعالى ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ مجازٌ بالحذفِ على تقديرِ: كمَن مثلُه مثلُ ميّتٍ، أي: "أَنَّ جُزءَ الهَيئةِ المشبَّهةِ هو الميّتُ؛ لأنَّ المشبَّهَ والمشبَّهَ بهِ سواءٌ في الحالةِ الأصليَّةِ وهي حالةُ كوْنِ الفريقين مشركَيْنِ"[3]، أي: كمن لو شبّهَ بشيءٍ كانَ شبيهُهُ من كانَ في الظّلماتِ، فالمشبّهُ والمشبّهُ به متساويان في وصفِهما بالمشركَيْن.

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/62.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/263، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ45.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ43.

بلاغةُ الاسْتِعَارةِ في قولِه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

تَشْبِيهُ الظّلماتِ بالمياهِ بجامعِ الهلاكِ فيهما، فهلاكُ الظّلماتِ مَعْنَوِيٌّ وهلاكُ المياهِ حِسّيٌّ

قولُه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ يتوفّرُ على الاستعارةِ، فقد شبّهَ الظّلماتِ بالمياهِ بجامعِ الهلاكِ لكلٍّ منْ يكونُ فيهما، فلا يستطيعُ الخُرُوجَ منهما بلْ يتردّى فيهما، فهلاكُ الظّلماتِ معنويٌّ، وهلاكُ المياهِ حسّيٌّ، واستعملَ الحرفَ (في) لبيانِ حالِ المستغرقِ فيها في كونِها ظرفًا لهُ، ويرشحُ هذهِ الاستعارةَ قولُه: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

نكتةُ إفرادِ ﴿نُورًا﴾ وجمعِ: ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

طريقُ الحقّ واحدٌ وطرقُ الضّلالِ متعددةٌ

أفردَ النورَ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ وجمعَ الظّلماتِ في قولِه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ونكتةُ ذلكَ أنّ طريقَ النّورِ واحدٌ، وهو طريقُ الحقّ ﷺ، أمّا مجيءُ الظُّلماتِ جمعًا؛ فهو لتَناسُبِ تعدُّدِ أنواعِ الكُفرِ والضّلالِ المتكاثفةِ، وتبتدئ بالأهواءِ، وهي ظلمةٌ، ثمّ الأوهامِ وهي ظلمةٌ، ثمّ الشّركِ وهو ظلماتٌ[1].

غرضُ إسنادِ جعلِ النُّورِ لله في حقِّ المُهتدِي، والاستغراقِ في الظُّلُمَاتِ للضَّالِّ:

إسنادُ جعلِ النورِ إلى اللهِ امتنانٌ على عبادِه، والاستغراقُ في الظّلماتِ تبشيعٌ وتحذيرٌ

أُسنِدَ جعلُ النورِ في حقّ المهتدي إلَيْهِ ﷻ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾، فيما جُعلَ الضّالُّ مُستغرقًا في الظّلماتِ في قولِه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ لأنهُ أرادَ في الأولى إظهارَ الامتنانِ على عبادِه الضّالّينَ بعدَ أنْ أحياهمْ وأنقذهمْ وأخرجَهمْ منَ الموتِ إلى حياةِ القلوبِ، بَيْدَ أنَّهُ أرادَ في الثّانيةِ اسْتِبْشَاعَ صُورَةِ المنغمسِ في الظّلماتِ تنفيرًا منهُ وتحذيرًا.

فائدةُ مقابلةِ ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ لقولِه: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾:

شتّانَ بينَ منْ أنقذه اللهُ منَ الضّلالةِ ومن هو غارقٌ في الظلماتِ

في قولِه تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ مقابلةٌ لقولِه: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؛ مقابلةُ منْ هُدي بحياةِ الإيمانِ، ومنْ بقيَ غارقًا في ظلماتِ الشّركِ مُتحيّرًا لا يستطيعُ الخروجَ منها، وفائدةُ هذهِ المقابلةِ بيانُ أنَّ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/3625، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/635.

الحالتَين كانتا في موتٍ، أمّا الأولى فأحياهَا اللّهُ بالإيمانِ، وأمّا الثانيةُ فبقيتْ في كفرِها.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّه استئنافٌ بَيَانيٌّ ناشئٌ عنْ سؤالٍ مؤسَّسٍ على التّمثيلِ السّابقِ: أن كيفَ ارتضَوْا أنْ يَبْقَوْا في تلكَ الضّلالاتِ، وكيفَ لمْ يَرَوُا الفرقَ بينَ حالِهمْ منَ الضّلالِ وحالِ الذينَ أسلموا واهتدَوا، وإذا كانوا قبلَ الإسلامِ في انحطاطٍ وغفلةٍ، فما بَالُهُمُ استمرُّوا في ضلالِهمْ بعدَ ما جاءَهمُ الهدى والحقُّ بالأدلّةِ والبراهينِ؟[1]، فكانَ قولُه تعالى هذا بيانًا شافيًا لسببِ مُكْثِهم على ما هم عليه، وهو تزيينُ الشّيطانِ لهم.

شـفـاءُ غـليـلِ السّائل عن علّةِ ضلالِ المشركين

بلاغةُ التّشبيهِ وتعيينُ المُشَارِ إليه باسمِ الإشَارَةِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُركّبٌ من كاف التّشبيه واسمِ الإشارة، والمشبّهُ به ظاهرٌ مُشارٌ إليه، أو هو كالظّاهر المفْهُومِ منَ السّياق[2]؛ أي: كما زُيِّن ذلك التَّزيينُ المعهودُ لدى المخاطَبين عمومًا، زُيِّن للكافرين، أو إشارةٌ إلى إيحاء الشّياطين إلى أوليائهم، أو إلى تزيين الإيمان للمؤمنين زُيِّنَ من جهته تعالى خلقًا، أو من جهة الشّياطين وسوسةً لِلْكافِرينَ كأبي جهل وأضرابِه[3]، فالتَّشبيهُ هو لبيانِ أنَّ التَّزيينَ الواقعَ للكافرين، وقع مثلُه لغيرهم منَ الكافرين السَّابقين، أو للمؤمنين، بقطعِ النَّظر عمَّن أوقعَه في قلوبهم؛ فإنَّ الشَّياطين زيَّنتِ الأعمالَ للكافرين، واللّه زيَّن الإيمانَ في قلوبِ المؤمنين، فاغترارُ الكافرين بكفرِهم لا يغرُّ المؤمنَ الصَّادقَ.

التّزيينُ الواقعُ في قلوب الكافرين والمؤمنين سنَّةٌ اجتماعيّةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ46.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/2.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/263.

نكتةُ إسنادِ فعلِ ﴿زُيِّنَ﴾ للمفعُولِ:

القصدُ الإخبارُ عن وقوعِ التّزيينِ لا مَن أوقعَهُ

أُسْنِدَ الفعلُ إلى المَفْعُولِ وحُذفَ الفاعلُ في قولِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنّه أرادَ منَ الجملةِ وقوعَ التّزيينِ لا فاعلَهُ، وهمُ الشياطينُ، فشياطينُ الإنسِ هم المزّينونَ وشياطينُ الجنِّ همُ المُسوِّلون[1].

سِرُّ إيثارِ وَصْفِ الكُفْرِ على الشِّركِ في: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

الكفرُ أعمُّ من الشّركِ فهو يقعُ على ضروبٍ عديدةٍ منَ الذنوبِ القلبيَّة وغيرها

آثرَ النَّظمُ وصفَ الكافرينَ على المشركينَ في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنَّ الشركَ ممّا يدخلُ تحتَ مضمونِ الكفرِ؛ فالكفرُ هو إنكارُ حقٍّ من حقوقِ اللّه تعالى، أو شكٌّ فيه، أو تركُ طاعتِه، أو خروجٌ عنها على وجه العمْد والإصرار، والشّرك هو جعلُ نظيرٍ للّه تعالى في رُبُوبِيَّتِهِ أو ألوهيّتِه أو أسمائه وصفاته، فالكفرُ اسمٌ يقعُ على ضروبٍ كثيرةٍ منَ الذنوبِ، فضلًا عنِ الشرك، منها: جحدُ النبوّةِ، واستحلالُ ما حرّمَ اللّهُ، وغيرُ ذلكَ[2]، فالكفر أعمُّ من الشِّركِ، ولأنَّ الشّركَ خصلةٌ متعلقةٌ بمنافاةِ الإيمانِ ونقيضُه الإخلاصُ، فلمّا كانَ هؤلاءِ ممّن ارتكبَ الذّنوبَ الكثيرةَ فقد استحقّوا وصفَ الكافرينَ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

التّقديمُ مؤذنٌ بتقريعِ الكافرينَ ولبيانِ تخصيصِ التّزيينِ بهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ على نائبِ الفاعلِ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لزيادةِ التّشنيعِ والتّقريعِ عليهم، بتقديمِ اسمهم الدَّالِّ على علَّةِ الخطيئةِ، ولبيانِ تخصيصِ التّزيينِ بهم، كما قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [النحل: 63]، فاللّه لا يزيِّن للكافرين إلا ما كانوا يعملونَه من شرٍّ وظُلمٍ، بخلافِ المؤمنين، فإنَّ اللّه تعالى يُزيلُ عن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ46، ورضا، تفسير المنار: 8/27.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 454.

قلوبهم زينةَ المعصية، ويزيِّنُ لهم طاعتَه وإحسانَه، كما بيّن سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: 7].

بلاغةُ التَّعبيرِ عن نائبِ الفاعلِ بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: (ما) نائبُ فاعلٍ للفعلِ ﴿زُيِّنَ﴾، وهي اسمٌ موصولٌ دالٌّ على الإبهامِ والعموم[1] خلافَ (الذي) ونحوِها الدالِّ على التّنصيصِ، واستعمالُها في هذا الموضعِ للإشارةِ إلى تعدّدِ ما يعملونهُ وكثرتِه، "كعداوةِ النّبيِّ ﷺ وذبحِ القرابينِ لغيرِ اللّهِ تعالى، وتحليلِ الحرامِ، وتحريمِ الحلالِ، وغيرِ ذلكَ منَ المنكراتِ"[2]؛ فاستحقّوا على ذلك كلِّه وصفَهم بالكفرِ.

(ما) الموصوليةُ تفيدُ العمومَ إشارةً إلى كثرةِ أفعالِهم السّيّئةِ

نكتةُ إيثارِ العملِ على الصُّنعِ والفعلِ في: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

جاء التَّعبيرُ بقوله: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ (يصنعونَ)، أوْ (يفعلونَ)، ونكتةُ ذلك: أنَّ العملَ هو وصفٌ لما يقومُ به الإنسانُ عن علمٍ واستحضارٍ لذلك، فهو يعملُ ويعلمُ حقيقةَ عمله، فإيثارُ العمل لبيانِ أنَّهم مُحاسَبون على أعمالهم الصَّادرةِ عن إرادةٍ حرّةٍ باختيارهم ورضاهم، وهذا هو مقتضى العدلِ الإلهيِّ، أمّا الفعلُ فهوَ لفظٌ عَامٌّ، ويقعُ منَ الإنسانِ والحيوانِ والجمادِ، أمّا الصنعُ فهوَ يقتضي الإجادةَ[3]؛ فثبتَ أنَّ التّعبيرَ بـ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مُطابقٌ تمامًا لحال الكافرين من إيغالهم في ارتكابِ المعاصي والموبقاتِ.

اللهُ يُحاسبُ النَّاسَ على أعمالِهم الصَّادرةِ عن علمٍ وإدراكٍ

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

وردَ الفعلُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بالصّيغةِ المضارعيةِ للدّلالةِ على الاستمرارِ

(1) خالد الأزهري، شرح التصريح: 1/317.
(2) طنطاوي، الوسيط: 5/169.
(3) الراغب، المفردات: (صنع).

الكافر عنيدٌ في كـفـرِه مستمرٌّ فيه

والتّجدّدِ، فهم مستمرّون في عملهِمْ منْ أنواعِ الكفرِ والمعاصي وما حُكيَ عنهمْ منَ القبائحِ[1]، وهذا يدلُّ على شديد إصرارِهم، وكبيرِ عنادِهم.

نكتةُ حذفِ المفعولِ في قولِه: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

كلُّ عملٍ قام به الكافرُ باعتبارِ كفرِه داخلٌ في الوعيد

حُذِفَ مفعولُ الفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ كيْ تذهبَ نفسُ السّامعِ كلَّ مذهبٍ ممكنٍ في تقديرِه، وقد عيّنَهُ بعضُهُم أنّه عداوةُ النّبيّ ﷺ والذّبحُ لغيرِ اللّهِ تعالى وتحريمُ ما أحلّ اللّهُ[2] ويجوزُ غيرُه، والصّحيحُ أنَّ حذف المفعول يُراد به السَّعةُ والشّمولُ لكلِّ عملٍ قام به الكافرُ باعتبارِه كافرًا، دون تخصيصه بعملٍ دون آخر، وهذا أشدُّ في المحاسبة والوعيد.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النّور والضّياء:

الضياءُ ما كانَ ذَاتِيًّا، والنّورُ ما كانَ مُكتسَبًا من غيرِه

في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَنَا لَهُۥ نُورٗا﴾ استعملَ كلمةَ النّورِ ولمْ يستعملْ مرادفَهُ (الضّياء)، وهو ما "يتخلّلُ الهواءَ منْ أجزاءِ النّورِ فيبيضُّ بذلكَ ... فالنّورُ الجملةُ التي يتشعّبُ منها"[3]، ثمَّ فرّقَ بينهما على وجهِ الدّقّةِ وهو أنَّ الضّياءَ ما كانَ صدورُهُ ذَاتِيًّا، أمّا النّورُ فما كانَ مكتسَبًا منْ غيرِه، وعليهِ معنى قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5]؛ فإنّ نورَ القمرِ مستفادٌ من ضياءِ الشّمسِ[4]، وهذا المعنى طباقُ الجملةِ محلَّ الشاهدِ؛ فإنَّ نورَ منْ آمنَ واهتدى مكتسَبٌ منْ نورِه تعالى لا منْ ذاتِه.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/263، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/484.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/27.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 332.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 332.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»